مقام الحال ومظاهره اللغوية في مؤلفات القدامى

أ.م.د محمد توفيق عبد المحسن
قسم اللغة العربية – كلية الآداب / جامعة الأنبار

م. محمود عبد اللطيف
قسم اللغة العربية – كلية الآداب / جامعة الأنبار

ملخص اللغة العربية :

جَهَدَ كثير من القدماء أنفسهم في الكشف عن أسرار العربية ، فتكلموا على نشأة اللغة ونموها وتطورها، ، ومما نلحظ من ذلك أن مقام الحال عندهم يصارع ألفاظ اللغة ، وينازعها في مقاييسها وموازينها ، ويكاد يتحكم في كل ما يُلفظ ويُقال .

إنَّ حال المخاطَب والمخاطِب ، ونوع الخطاب ، والزمان والمكان ، والهيئة ، وحالات النفي وما يَعرض لها ، تَعرِض في المقام كلها ، أو تُستدعى قبل التكلم وحينَه وبعدَه ، فتجد المتكلم مبدعاً اللفظ المناسب تصوراً وتطبيقاً ، أو مُحَرِّفاً ما عَهِدَهُ من ألفاظ بوحي من ذلك الحال، وربما شاع هذا اللفظ ونما ، وربما لحقه التطوير والتغيير بين الحين والحين ، فمنه ما تراه راسخاً ومنه ما يزول .

وفي كتب اللغة مواطن كثيرة تدلل على تصرف المتكلم في الأصوات والألفاظ تصرفاً يبتدعه ابتداعا ، وهو في كل ذلك متأثر بعوامل عدة منها : العامل النفسي الذي كان حاضراً عند العربي سليقة وفطرة ، عند كل جملة تقال ، وكل كلمة تختار .

هذا التنوع لم يكن محصوراً يوماً بظاهرة لهجية ،ولا بما يسمى بالصواب والغلط والوهم ، ولا يمكن جعله تأثيراً صوتياً مجرداً من الدلالة . إذ لابد من إعادة النظر في مسبباته ، فلا يعقل أن تتسع ظاهرة بهذا الحجم ، وتروى الألفاظ بهذا التنوع ، وهذه الكثرة ، ولا يكون ذلك لغرض صوتي ، أو مَيْلٍ فطري يتدخل في إحداثها . وهناك حقيقة قائمة وهي : أن الاشتقاقات اللفظية اللغوية في العربية تشكل أكثر من (٨٠ %) من المفردات اللغوية ، وإنّ هذه الاشتقاقات ما اشتقت إلا بمراعاة المقام ، ومثل هذا متوافر في كتب اللغة والنوادر وكتب معاجم المعاني مثل كتاب البئر وكتاب النخل وكتاب خلق الإنسان و ... الخ .

إنَّ هذا البحث يهدف إلى لمِّ شتات ما يبرهن على الصلة بين العوامل النفسية والحالية ، وبين توليد الألفاظ وذلك باستقصاء إشارات القدماء في كتبهم ، ومحاولة توجيه ما ذكروه وتبويبه ؛ للتعرف على حجم هذه الظاهرة ، والاستفادة منها في التوليد المستقبلي . وكذلك يفتح آفاقاً في الدرس اللغوي ، ويسعى لبيان سر تنوع الصيغ في العربية . ثم هو يبدأ مرحلة جديدة في الدرس القرآني ؛ لبيان أسرار التنوع في القراءات القرآنية ، والإعجاز الدلالي لذلك التنوع ، وأثره في تفسير النص القرآني .

وسيتم التأكيد على أثر المقام في توليد ألفاظ اتسمت بالغرابة الدلالية ، أو الغرابة اللفظية ، مما عُدَّ نادراً أو لغةً أو توهماً . أو مما وقع فيه محاكاة أصواتٍ ، و قلبٍ ، وإبدالٍ ، أو نحتٍ وتركيبٍ ، أو تعاظم ألفاظٍ على معنىٍ واحد . وسيكون في مبحثين :

أولهما :مقام الحال في مؤلفات القدامى .والآخر :مظاهر المقام في الظواهر اللغوية .

توطئة:

ذكرت في بحث لي بعنوان (مقام الحال وأثره في تنوع الحركة في الأبنية . دراسة تطبيقية في الجذر الثلاثي) [١] ، أنّ كثيراً من القدماء جَهَدوا أنفسهم في الكشف عن أسرار العربية ، فتكلموا في نشأة اللغة ونموها وتطورها، وهم في النشأة بين داعٍ إلى التوقيف ، أو مشغوف بأسرار اللغة يبحث عن أصول وقواعد محكمة تواضع عليها العرب تواضعاً ، وتتازعوها تنازعاً ، فكان نتاج حضارتهم ؛ نظماً بديعاً ، جعل اللغة مساراً صالحاً لخدمة القرآن الكريم .

وأنّ لهذا النظم مظاهر تستحق الدرس ما برح القدماء أنفسهم يؤثرونها ويُؤشِرونها . بل تراهم يُلمِّحون أو يُصَّرِحون بها ، ويعرضون لأمثلتها ، فتظهر دوافع ، وتتجلى أغراضٌ ،وراء هذا الكمّ الهائل من الألفاظ المعجز في دلالته اللفظية ، في معانيه وأصواته

وأن مقام الحال يصارع ألفاظ اللغة ، وينازعها في مقاييسها وموازينها ، ويكاد يتحكم في كل ما يُلفظ ويُقال .فكأنَّ حال المخاطَب والمخاطِب ، ونوع الخطاب ، والزمان والمكان ، والهيئة ، وحالات النفي وما يَعرض لها ، تَعرِض في المقام كلها ، أو تُستدعى قبل التكلم

وحينَه وبعدَه ، فتجد المتكلم مبدعاً اللفظ المناسب تصوراً وتطبيقاً ، أو مُحَرِّفاً ما عَهِدَهُ من ألفاظ بوحي من ذلك الحال ، وربما شاع هذا اللفظ ونما ، وربما لحقه التطوير والتغيير بين الحين والحين ، فمنه ما تراه راسخاً ومنه ما يزول .

ومن مظاهر ذلك أننا نجد في كلام من يَسكنُ في وسط الجزيرة العربية غير كلام مَن يسكن في شرقيها وغربيها وشماليها وجنوبيها ، في تخومها وجبالها ، سهولها وبراريها . نجد مفردات وأصوات بعيدة ، بل غريبة جديدة غير مألوفة. ونجد في المصائف ما لا نجده في المشاتي ، وفي المعارك أسماء وأصوات تنفر منها أسماء وأصوات السلم ، وفي المدينة أصواتٌ تنأى عنها كلمات البادية ، وبين الأحبة كلام لا يدانيه كلام أهل المشاحنة والعداء ، وفي وصف الحيوان غير ما يوصف به الإنسان ، فتنوعت الأوصاف وتعددت الألفاظ وتغيرت الأصوات ، لكنها حافظت على نبر المقام وحال الكلام . ومن هنا تبدو أهمية هذه الدراسة لضرورة توصيف المؤثر والمتأثر .

ومن البديهة عدم التسليم لمن يقول بمطلق التوقيف في اللغة جميعها ؛ المجاز منها و المستعار فيها ؛ لأن من شأن ذلك أن يلغي دور المتكلم في كثير من المتغيِّرات الصوتية والتركيبية التي أبدلت كثيراً من الألفاظ مما عدوه من الشاذ وغير الشائع والمخالف للقياس .

إنّ في كتب اللغة مواطن كثيرة تدلل على تصرف المتكلم في الأصوات والألفاظ تصرفاً يبتدعه ابتداعا ، وهو في كل ذلك متأثر بعوامل عدة منها : العامل النفسي الذي كان حاضراً عند العربي سليقة وفطرة ، عند كل جملة تقال ، وكل كلمة تختار .

إنَّ هذا البحث يهدف إلى لمِّ شتات ما يبرهن على الصلة بين العوامل النفسية والحالية ، وبين توليد الألفاظ وذلك باستقصاء إشارات القدماء في كتبهم ، ومحاولة توجيه ما ذكروه وتبويبه ؛ للتعرف على حجم هذه الظاهرة ، والاستفادة منها في التوليد المستقبلي وكذلك يفتح آفاقاً في الدرس اللغوي ، ويسعى لبيان سر تنوع الصيغ في العربية . ثم هو يبدأ مرحلة جديدة في الدرس القرآني ؛ لبيان أسرار التنوع في القراءات القرآنية ، والإعجاز الدلالي لذلك التنوع ، وأثره في تفسير النص القرآني .

وسيتم التأكيد على أثر المقام في توليد ألفاظ اتسمت بالغرابة الدلالية ، أو الغرابة اللفظية ، مما عُدَّ نادراً أو لغةً أو توهماً . أو مما وقع فيه محاكاة أصواتٍ ، و قلبٍ ، وإبدالٍ ، أو نحتٍ وتركيبٍ ، أو تعاظم ألفاظٍ على معنىٍ واحد . وسيكون في مبحثين :

أولهما :مقام الحال في مؤلفات القدامى .

والآخر :مظاهر المقام في الظواهر اللغوية .

المبحث الأول

المقام في مؤلفات القدامى

لم يُغفل القدماء أثر المقام في نشأة اللغة وتطورها ، فقد بحثوا في أسرار تكوينها واختيار ألفاظها ، وصلة الصوت بالمعنى ، وفطنوا لأثر المقام في استدعاء الباعث النفسي والباعث الصوتي وراحوا ينقبون في الأثر يتتبعون الشعر الجاهلي ودلالات ألفاظه . ثم عَرَّجوا على ما استحدثه القرآن الكريم من الألفاظ مما لم يستعمل في جاهلية ما قبل الإسلام من مثل : الخيط الأسود ، والخيط الأبيض ، والمثوبة ، وخلاف ، وادَّارأتم ، و جهنم ، و حَوب ، و الأبّ ، و فاطر ، و بَوَّأكم ، و أُجاج ، و قطمير ، و لَغوب ... وغيرها مما أحصوه في باب غريب القرآن .

وأكثر منه ما استُحدث على لسان النبي صلى الله عليه وسلم وكثير من أصحابه وأتباعه ، مما رُويَ في كتب (غريب الحديث والأثر) مما تنوعت ألفاظه تنوعاً عجيباً لتناسب المقام للمتكلِّم والمتكلَّم عنه . من مثل: (خَضِّلي قَنازِعَك) للمرأة ، وللبيت (سَهلٌ و دَكْدَاك) ، وللوصف (فَوَقَصَت بهِ ناقَتَهُ في أخاقيق جرذان فمات) وغير ذلك مما يُظهر لك تمثيلاً حقيقياً يرتبط بمقام الحال . [٢]

وفي كتب اللغة أمثلة وافرة في تنبه القدامى إلى هذه الظاهرة وسعيهم للبحث فيها ، والسؤال عنها ، فهذا الأصمعي (ت٢١٦هـ) يقول : " سألت جُبَير بن حبيب :لِمَ سُمِّيَ الهُبَعُ هُبَعَاً ؟ فقال: لأن الرّاح تُنتِجُ في رِبعتهِ النِتاج ، أي أولَّهُ ، ويُنتج الهُبَعُ في الصيفية ، فإذا ماشى الرِباعَ أبْطَرَتْهُ دَرَعَهُ ، لأنها أقوى منه فَهَبَعَ ، أي استعان بعُنقهِ في مشيهِ" [٣]

.

وللأصمعي هذا أكثر من وقفة في أكثر من موضع ، فهو يتتبع الألفاظ وكأنه يبحث عن أسرار نشأتها ، فتراه يقول: " الأسير أصله أنه رُبِطَ بالقَدِّ فأسَرَه ، أي شَدَّهُ فاستعمل حتى صار الأخيذ أسيراً " [٤] .

ويقول في موطن آخر : " يقال جاءت وما عليها خَرْبَصِيصَةٌ ، أي شيء من الحَلْي وكذلك هَلْبَسِيسَةٌ . ويقال ما عليه قِرْطَعْبة وما عليه طِحْرِبة ، أي قطعة خِرقَة ، وما عليها طحمريرة ، وما عليها طحرورة وطخرورة، وما عليها طِهلية . ويقال : ما عنده قُذَعملةٌ ولا قَرطَعبة . وقال أبو صاعد : ما في الوعاء خَربصيصةٌ ولا فيه قُذَعملة ..." [٥] .

فانظر كيف تنوعت الألفاظ والمقصود واحد ، وهو القليل المختصر المحتقر من كل شيء ، ذهباً كان أو ثوباً ، أو حاجة ، فتنوعُ اللفظِ مرتبطٌ بصفات الحاجة وشكلها ولونها وأهميتها ، فالمحتقر من كل صنف له خصائص لحقت بالتسمية .

وتدلنا ألفاظ (الغريب المصنف)لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) إلى أنّ كثيراً من ألفاظ الغريب مبناها على أنّ المتكلم راعى حال المتكلَّم عنه طولاً وعَرضاً ، لوناً وسرعةً، مكاناً وزماناً ، تغيراً وثباتاً ؛ لأن ألفاظه ما وضعت إلا تأثراً بمقام الحال .

ونجد في الكتب التي عنيت بأسماء المسميات من مثل : كتاب البئر، وكتاب الخيل ، وكتاب خلق الإنسان ... الخ الدليل التام والواضح على ذلك .

أما كتاب (الإبدال)لابن السكيت (ت٢٤٤هـ) فهو مثال آخر لكثرة الألفاظ التي واقعها الإبدال تأثراً بمقام الحال ، وإن قَلّتْ إشاراته فيه ، لكنه في كتابه(إصلاح المنطق) يربط اللفظ بحاله وكأن الحال هو المتسبب في اختيار اللفظ على من سواه ، فهو ينقل عن ابن عمر قوله : " وبالموصل جبل يقال له شَعْرَان ، سُمِّي بذلك لكثرة شجره " [٦] ،ويقول: يقال رجلٌ صرورة وصارورة وصروري وهو الذي لم يحجّ ، و حكى الفراء (ت٢٠٧هـ) عن بعض العرب قال :الصرورة الذي لم يأت النساء ، كأنه أصر على تركهن " [٧] .

ويقول : " حضرني أعرابيان من بني كلاب فقال أحدهما :إنْفَحَةٌ ،وقال الآخر :مِنْفَحَةٌ ، ثم افترقا على أن يسألا جماعة الأشياخ من بني كلاب ، فاتفق جماعةٌ على قول ذا ،

وجماعة على قول ذا ، وهما لغتان " [٨] .

وليس يخفى أن الاختيار مبني على الألفة بين اللفظ ومعناه ، فكلٌ فَهِمَ في الصيغة التي اختارها الدلالة على الحال الذي رآه .

وإذا كان ابن السكيت قد فتح باباً في تتبع هذه الظاهرة فإن ابن قتيبة(٢٧٦هـ) وَلَجَ فيه بفطنته ، فرأى مقام الحال ، ودلالة الحال ، ضرورة في كثير من ظواهر اللغة ، فعدَّ من ذلك التخلي عن هاء التأنيث في أوصاف النساء لاختصاص الوصف بهن وعدم اشتراكه بالمذكر ، فإن لحقت التاء وصفاً كان ضرورة مشتركاً بين المذكر والمؤنث . [٩] وإنما تأتي هذا من النظر في مقام الحال .

وابن قتيبة هذا بدأ يراقب الألفاظ وما يحدثه فيها الناس من تغيير فلم يضعها في باب اللحن كما فعل غيره ، بل وضعها تحت عنوان (ما يضعه الناس في غير موضعه من حيث الدلالة) [١٠] ، وكأنه يريد بذلك أن الناس تغير اللفظ تبعاً للدلالة ومقام الحال .

وما أبدع فيه ابن قتيبة سايره فيه من بعده أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) في كتابه (الفروق اللغوية) ، ثم استكمل الأمر وأتمّه نور الدين الجزائري (ت١١٥٨هـ) في كتابه (فروق اللغات في التمييز بين مفاد الكلمات) فتوسع في رصد ظواهره الأخرى [١١] .

على أنّ ابن قتيبة كان الرائد في هذا الأمر ، ورافع لوائه فهو في كتابه (المعاني الكبير في أبيات المعاني) [١٢] ، يذكر معاني الألفاظ الواردة في أبيات كتابه فيوضح الصلة بين اللفظ والمقام الذي أدى إلى اختياره وتوليده ، فيقول مثلاً : " النَّشر نبت ينبت من مطر يكون في الصيف بعد يبس الكلأ ، وهو متناثر فلذا سمي نشراً [١٣] .

وينقل قول الشاعر :

أَقَلَّ وأقوى فهو طاوٍ كأنما يجاوب أعلى صوته صوتَ مِعوَلِ

ويقول : " أَقَلَّ ؛ وقَعَ في أرض قِلّ وهي التي لم تُمطَر ولا نَباتَ بها ، وأقوى صار في القواء وهو الخلاء " [١٤] .

إنّ هذه الإشارات الواضحات التي رسَّخها ابن قتيبة وجدت لها صدىً واضحاً في تفكير من تصدى للغة من بعد . وهكذا نجد ابن السراج (ت٣١٦هـ)يقول جازماً : " فمتى

سمعت حرفاً مخالفاً لاشك في خلافه لهذه الأصول فاعلم أنه شذَّ ، فإن كان سُمِعَ ممن تُرضى عربيته فلابد أن يكون قد حاول به مذهباً ، أو نحواً من الوجوه ، أو استهواه أمرٌ غلَّطَهُ " [١٥] . فابن السراج يُلَمِّحُ لمقام الحال وأن لم يصرح به لفظاً .

وجولة في(الزاهر في معاني كلمات الناس) لأبي بكر بن الأنباري (ت٣٢٨هـ) ، ينقل فيه ما قيل وما يقال من أمثال العرب ، تنبئنا بكثير وافرٍ من أحوال تولد الألفاظ في تلك الأمثال حتى إنك تجد من الألفاظ ما يلتصق بالحال أحياناً ، فهذا عدي بن زيد يقول :

أيها القلب تعلل بدَ دَنْ إنَّ هَمّي في سماعٍ وأَذَنْ

فيأتي النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ليقول :(ما أنا من ددٍ ، ولا الدَّدُ مني) [١٦] .

فما هو (الدَّد) ؟ إنه محاكاة لصوت الآلة الموسيقية توَلّد عنها كلمة وهي مستعملة الآن في عامياتنا ، فهم يسمون الراقص والمطرب والضارب على آلات الموسيقى (دَدَو) يحاكون الحال بالصوت ، فيصفون كل من يتحرك بهذه الحركات بهذه الصفة .

وابن الأنباري ؛ يورد في كثير من المواطن أسباب التسميات والألفاظ ، ودواعي القول والأحوال المصاحبة ، فتراه مثلاً يقول : " (فَحَصَ الظبي) إذا عدا عدواً شديداً لا يخالطه فيه وَنى ولا فتور " . وفي موطن آخر يذكر سر تسمية العبد الصالح (الخَضر) عليه السلام ، ثم تسمية (الداعور) و(الداعِرة) ، وهكذا هو يفعل في كتابه . [١٧]

ويتبنى الموقف ابن جني (ت٣٩٢هـ) ، فيشير ملوحاً ومصرِّحاً بمقام الحال ، في كتابه (الخصائص) في (باب خفاء التسمية) [١٨] ، وباب (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) [١٩] ، وباب (إمساس الألفاظ أشباه المعاني) [٢٠] ، و (باب قوة اللفظ لقوة المعنى) [٢١] . إنّ دلالة اللفظ على الحال مسألة وصلَ إليها علم الأولين فيما يعرف بمشاهدة الأحوال ، يقول ابن جني (٣٩٢هـ) " والذي يدلُّ على أنهم أحسُّوا ما أحسَنا ، وأرادوا وقصدوا ما نَسبنا إليهم إرادته وقصدهُ شيئان : أحدهما حاضر معنا ، والآخر غائب عنا ، إلا أنه مع أدنى تأمل فهو في حكم الحاضر معنا . فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها ، وتضطر إلى معرفته من أغراضها والرضا به ، أو التعجب من قائله ، وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود ، بل الحالفة على ما

في النفوس ، ألا ترى إلى قول نعيم بن الحارث السعدي :

تقول وصَكَّت وجهها يمينها أبَعْلي هذا بالرحى المُتَقَاعِسِ

فلو قال حاكياً عنها : (أبعلي هذا بالرّحى المتقاعس) من غير أن يذكر صكّ الوجه ، لأَعلَمنا بذلك أنها متعجِبة منكِرة . لكنه لمّا حكى الحال ، فقال : (وصكَّت وجهها) عُلِمَ بذلك قوة إنكارها ، وتعاظم الصورة لها ، هذا مع إنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها ، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ، ولعظِم الحال في نفس تلك المرأة أَبيَن وقد قيل : (ليس المُخبر كالمعاين) " [٢٢] .

كذلك عمد ابن جني إلى تخصيص باب من كتابه لهذا النوع ، فتراه يسمي هذا الباب بـ (باب خفاء التسمية) يذكر فيه سر قولهم : (رفع فلان عقيرته) [٢٣] .

وهكذا يستمر ابن جني في عرض صور الدلالة على أثر الحال المشاهدة في فهم المراد وجعله دليلاً على ما في النفوس . وهو لا يتوقف عند هذا الحد فتراه يصرّح بأثر المقام في اختيار الأصوات فيقول : " إنَّ كثيراً من هذه اللغة مما وجدته مظاهياً بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عُبِّر عنها " [٢٤] . وهذا مؤكد ، لأنه " قد تؤدي شدة الباعث الصوتي على توليد الكلمات والأصوات إلى ما يكاد يكون اعتقاداً غامضاً في وجود مطابقة خفية بين الصوت والمعنى " [٢٥]. ويزيد فيقول : " ألا تراهم قالوا : قضم في اليابس ، وخضم في الرطب ، وذلك لقوة القاف وضعف الخاء ، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى ، والصوت الأضعف للفعل الأضعف . وكذا قالوا صَرَّ الجندب فكرروا الراء لما هناك من استطالة صوته ، وقالوا : صَرْصَرَ البازي فقطَّعوه لما هناك من تقطيع صوته ، ..." [٢٦] .

ونعود لابن فارس (ت٣٩٥هـ) ، فلم يكن أقل وضوحاً ممن سبقه في الإشارة إلى المقام ، فهو يكثر في كتابه (الصاحبي في فقه اللغة) في باب مراتب الكلام ، ووضوحه ، وإشكاله ، على أنه من المشكل الذي لم يأته الإشكال من غرابة لفظه [٢٧] .

وهو لا يزال يؤكد أنّ كثيراً من المُشكل كان بسبب إيماء قائله إلى خبر لم يفصح به ، أو أن يكون مما لا يُعلَم معناه إلا بمعرفة قصته [٢٨] ، ويَذكرُ من ذلك في (باب

زيادات الأسماء) ، فيقول : " ومن سنن العرب الزيادة في حروف الاسم ، ويكون ذلك إما للمبالغة وإما للتشويه والتقبيح ، سمعت من أثق به قال: يفعل العرب ذلك للتشويه ، يقولون للبعد مابين الطرفين المفرط الطول (طِرِمَّاح) وإنما أصله من الطَرح ، وهو البعد، لكنه لما أفرط طوله سُميَ ؛ (طِرِمَّاحاً) فشُوِّه الاسم كما شُوِّهت الصورة ، وهذا كلام غير بعيد " [٢٩] .

ثم إنّ للثعالبي (ت٤٢٩هـ) في كتابه (فقه اللغة وسر العربية) أبواباً تستقرئ هذه الظاهرة من ذلك (باب الأشياء تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها) و (باب أوائل الأشياء وأواخرها) ، وصغار الأشياء وكبارها ، وحكاية أصوات المكروبين والمكدودين والمرضى ... الخ .

وحسبك أن ترى قوله : " لا يقال لماء الفم رِضاب إلا مادام في الفم ، فإذا فارقه فهو بُزاق . .. ولا يقال للإسراع في السير إهطاع إلا إذا كان معه خوف ، ولا إهزاع إلا إذا كان معه رِعدة ... " [٣٠] ، وهكذا .

كل هذه الإشارات تثبت قطعاً أن مقام الحال كان حقيقة مسلمة في عقول القدامى ، استشعروه وأقرّوه فصار أصلا من أصول الوضع اللغوي عندهم . أما نحن فالجهد منا مطلوب لتتبع أثر هذه الظاهرة في ألفاظ اللغة المدونة كلها وصولا إلى دلالات المقام ، وهو أمر يحتاج جهد جماعات . نسأل الله التوفيق .

المبحث الثاني

مظاهر مقام الحال في الظواهر اللغوية

أولا : التوليد الاشتقاقي .

ربما سمع الإنسان صوتاً فهو يحاول في تسميته أو توصيفه ، وأول ما يحاول عليه أن يراعي الانسجام بين الحال والصوت واللفظ الدال عليهما .

فيراعي في الصوت الاستطالة والتقطيع والصفير والتكرار والخشونة والنعومة والقلقلة والخفض والاستعلاء وغير ذلك من الصفات ، وهو موضوع شريف نبه عليه الخليل و

سيبويه ، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته فكأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً ، فقالوا : صَرَّ . وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً ، فقالوا : صَرصَر . وهذا الأمر نبه عليه ابن جني [٣١] ، فهو يقول: " أما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ، ونهج مُتْلَئِبّ عند عارفيه مأموم . وذلك أنّهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سَمت الأصوات المُعَبَّر عنها فَيُعَدِّلُونَها .ويحتذونها . وذلك أكثر مما تقدره ، وأضعاف ما تستشعره .من ذلك قولهم : خَضِمَ وقَضِمَ ، فالخَضْمُ ، لأكل الرّطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب ، والقضم ، للصلب اليابس...وفي الخبر (قد يُدرَك الخَضْم بالقَضْم) أي يدرك الرخاء بالشدة واللين بالشَظَف . وعليه قول أبي الدرداء : (يخضمون وتقضم والموعد الله) ، فاختاروا (الخاء) لرخاوتها للرطب، و (الكاف) لصلابتها لليابس ، حذواً بمسموع الأصوات على محسوس الأحداث . ومن ذلك قولهم النضح والنضخ ، والقدّ والقطّ ، وقَرَتَ وقَرِدَ وقَرَطَ " [٣٢] .

ولم يكتف ابن جني بهذه الأمثلة وما حصل فيها من تغيير صوتي تبعاً للتغير المعنوي ، بل عدَّ ذلك قاعدة لأكثر كلام العرب ، وإن كان غفلاً مسهواً عنه ، فجعل منه اقتراب الأصلين الثلاثيين مثل : ضَيَّاط وضَيطار، ولُوَقة و ألوِقةٍ ، ورِخو و رِخوَد ، ودِمْثٍ و دِمَثْرٍ ، وسِبطٍ و سِبَطرٍ ، وجعل منه تقليب الحروف نحو:(كمل) و (لكم) و (مكل) [٣٣] .

وأروع من ذلك قوله في (باب تقارب الحروف لتقارب المعاني) ؛ من ذلك قوله سبحانه : (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطينَ على الكافرينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) (مريم /٨٣) ، أي تزعجهم وتقلقهم ، فهذا في معنى تَهُزُّهُم هَزًّا ، والهمزة أخت الهاء ؛ فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين . وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء ، وهذا المعنى أقوى في النفوس من الهزّ ؛ لأنك قد تهز ما لا بال له ؛ كالجذع وساق الشجرة ، ونحو ذلك .

ومنه (العَسَفُ والأَسَفُ) ؛ والعين أخت الهمزة ، كما أنَّ ؛ الأَسَفَ يَعْسِف النفس وينال منها ، والهمزة أقوى من العين ؛ كما أنَّ ؛ أسَفَ النفس ، أغلظ من التردد بالعَسْف ، فقد ترى تصاقب اللفظين لتصاقب المعنيين [٣٤] .

وكثير من ذلك في مواضع أخرى [٣٥] ، يُعَقِّبُ عليها ابن جني بقوله : " وهذا النحو من الصنعة موجود في أكثر الكلام ، وفرش اللغة ، وإنما بقي من يثيره ويبحث عن مكنونه ، بل من إذا احتيج له كُشِفَتْ عنده حقيقته طاعَ طبعه فوعاها وتقبّلها ... " [٣٦] .

وهنا تظهر صلة الحال باللفظ المختار ، فهي صنعة في الكلام يتوق إليها المتكلم ولّما كانت صنعةً ، فقد دلَّت على التوليد لا على الوصف .

ثانيا : الإتباع الحركي .

لا يخرج الإتباع في كثير من مظاهره عن مراعاة مقام الحال .وقد يعده بعضهم نوعاً من التقريب كما في قوله تعالى: (الحَمدُ لُلّه) ، و ((الحمدِ لِله) [الفاتحة:٢] [٣٧] ، فإيثار الضم فيه تغيير لحركة اللام نزولاً عند الدلالة التي يقصدها المتكلم ، في عدم كسرها بعد رفع الدال ؛ لأن الرفع في الابتداء تخصيص وإلزام من الجميع بحمد لله تعالى ، فالناس يحمدونه مخصِّصِين له الحمد ، ملزِمين أنفسهم بذلك خشوعاً وطاعة وتعبداً . لا خضوعا واستجابةً وتنفيذاً ، وهذا هو مفهوم الجملة الاسمية عند النحاة ، فالمبتدأ معرفة والخبر وصف متمم للفائدة ، وكلاهما سياق خبر عن فعل أو حال . لكنّ معنى قولهم (الحمدُ لُلّه) ، أي نحن ملتزمون نَحمدُ الله نحمده ، وقولنا يؤكده ويوافقه معلناً. وقس على ذلك ما شاكَلَه من قراءات القراء مما فيه إتباعٌ مقبلٌ لما قبله ، فصار كسر لام الجر والملك غير لائق في هذا الموضع ، إذ اللام ليست للملك هنا ، إنما هي للاقرار والالتزام من الحامد بمعنى : أنا أحمد الله حمدي من عندي مقصود . ثم إنّ كسر اللام لا يتناسب مع رِفْعَةِ المحمود في المنزلة ، ومن هنا جاءت رفعتها .

أما كسر الدال إتباعاً لكسر اللام فهو دليل ؛ أنّ الحمد صفة مملوكه له سبحانه ، وأنه تعالى استحق الحمد وجوباً أوجبه على خلقه ، فهو مالك الملك ، وهو مالك الحمد على سبيل الاختصاص والأحقية ، فَيَلْزَمُ عبادَه بذلك حمدُه . فكأنه جعل الحمد تابعاً لما بعده ، مملوك له صوتاً وحقيقة ، فألزَمَ المتقدم حركة المتأخر ؛ لإظهار الدلالة الجديدة ، فلما أراد إظهار المِلك كرر علامته مُتبعا الحمد للمحمود في حركة أولهِ ، وفي هذا الإتباع

تنويع في القراءة والأداء ، يتبعهما تنويع في المعنى .

ثالثا : الإتباع الصوتي

وينقل ابن جني مثل ذلك التقريب في نحو قولهم في : " (مَصْدر ، و مَزْدَر) ، وفي : (التصدير ؛ التزدير) ، وعليه قول العرب في المثَّلِ : (لم يُحْرَم من فُزْدَ له) أصله ؛ (فُصِدَ لَهُ) ، ثم اسكنت العين ... فصار تقديره : (فُصْدَ له) ، فلما سكنت الصاد فضعفت به وجاورت الصاد وهي مهموسة الدال ، وهي مجهورة ، قُرِّبت منها بأن أُشِمَّت شيئاً من لفظ الزاي المقاربة للدال " [٣٨] . والانتقال هنا من الهمس إلى الجهر سببه مراعاة حال المجانسة بين الحروف بعضها مع بعضها الآخر ، وتوحيد الصوت المجهور مع المجهور فهذا إتباع صوتي مُدْبِرٌ ، رُوعِيَ فيه مقام حال أصوات الحروف ، ومراعاة الحال وما يناسبه .كل هذا التحويل الصوتي كان مبتغاه التغيير الدلالي ، فالزاي أقوى من الصاد ، وفيها أزيزٌ وتكرار وجهر وشدَّة ، وهذا يناسب الزيادة المشار إليها بعدم الحرمان ؛ لأنَّ زيادة الصوت من زيادة الدلالة .

إنَّ إيحاء النفس وجرس الدلالة وخصائص الأصوات اللغوية عوامل وَلَّدَتْ كثيرًا من ألفاظ غريب الحديث فكأن المتكلم إذا احتاج ألفاظاً يوافي فيها المعاني لما يتأمله ويعانيه من أحوال تراه يخترعها اختراعاً ، وهذا ما وقع فعلاً إذ بدأ التوليد وشاع فكَوّن وافراً من الألفاظ انمازت بغرابة الاستعمال ، جُمعت تحت عناوين شتى،كان من بينها (غريب الحديث والأثر) ، وعند معاينة تلك الألفاظ تجد أن عوامل عديدة وقفت وراء هذا التوليد ، أغلبها لفظي صوتي ، ودواعيه معنوية وجدانية ، ومن مظاهر ذلك :

١- ما تكون من مجموع كلمتين أو أكثر ، مما يسمى بالنحت والتركيب ، من مثل : دَمْلَقَ ، و دَمْلَج ، و دَهْمَق ، و اطمأنَّ ، و ارفَهَنَّ ، و ارفأنَّ [٣٩] .

٢- ما تنوع بين الإبدال أو القلب في نحو : زُخْزُب ، و زُغزُب ، و شُغزُب ، و خَزَنَ ، و خَنَزَ ، و زُطية ، و زُقية [٤٠] .

٣- ما تنوع بالزيادة والتغيير نحو : خَزَبَ ، و خَنْزَبَ ، و سَبْهَلاً ، و سَبَهْللاً [٤١] .

٤- غرابة النسبة نحو : (أنه دخل المسجد وعامة أهله الكُنْتِيُّون) [٤٢] ، نسبة إلى كان .

٥- البعد عن الدلالة الأصلية نحو : (كان يَزْعَب لقومٍ ويُخَوِّصُ لقومٍ) ، ونحو : (وما اخذتك دِقْرارة أهلك) [٤٣] .

٦- غرابة اللفظ وندرته نحو (أكثِر دَوْفَصِها) و (أكثر فيجَنَسِها) [٤٤] .

وفيه ما رُويَ عن عمر رضي الله عنه قال: (لولا أن أترك أحز الناس بَبَّاناً واحداً ما فتحت على قرية إلا قسَّمتُها) ، وأنكره أبو عبيدة (ت٢١٠هـ) ، وقال الأزهري (ت٣٧٠هـ) : هذا حديث مشهور رواه أهل الإتقان وكأنها لغة يمانية .

٧- وقد يدفع الحال إلى ذكر ألفاظ قد توهم غير معانيها لأسباب يجهلها أهل اللغة فتراهم يضعون لكل موضع منها معنيٍ مثل كلمة (الثِّفال) [٤٥] ، و الغربيل [٤٦] .

إنَّ ما تقدم من ألفاظ غرَّبَ فيها المحدِّثُ عن المعلوم من الألفاظ له دواعٍ ودوافع خضع لها بعضها نفسي فجائي فهو مؤثر طارئ خارجي ومنها دوافع مقصودة الغرض منها التأثير في المتلقي بإبهاره وإفزاعه وإثارته لكي يتقبل المقال ويعيش الحال .

وفي الختام فقد اتضح لنا في هذا البحث ما يأتي :

١ – كان هناك تتبع دقيق لمظاهر مقام الحال في كتب الأقدمين ، وتفردوا بالجرأة الواضحة في عباراتهم بالتنصيص على هذه الظاهرة .

٢ – أشاروا في مواطن كثيرة إلى دور المتكلم في اختيار الألفاظ ، وإحداث التغييرات فيها لأجل المناسبة ومقام الحال .

٣ – هذه الإشارات تثبت قطعاً أن مقام الحال كان حقيقة مسلمة في عقول القدامى ، استشعروه وأقرّوه فصار أصلا من أصول الوضع اللغوي عندهم .

٤ – راعى المتكلم في التوليد الاشتقاقي المناسبة بين اللفظ والمعنى ومناسبة مقام الحال .

٥ – كان أحد مظاهر مقام الحال الإتباع الحركي في اللغة العربية .

٦ – كان الإتباع الصوتي بالقلب والإبدال مثالاً آخر على مراعاة مقام الحال .

٧ – إنّ كثيرا من غريب اللغة القرآن والحديث مرجعه إلى التأثر بمقام الحال .

وختاماً نسأل الله تعالى التوفيق والرشاد والسداد وهو الغفور الرحيم .

Place of the Case and Its Impact

Dr. Mohammed Tawfiq Aldgman
University of Anbar - Faculty of Arts - Department of Arabic Language
M. Mahmood A.Fawwaz.
University of Anbar - Faculty of Arts - Department of Arabic Language

Many ancient scholars tried their best to reveal the secrets of Arabic language by talking about the origin of the language and its development. Thus we noticed that the (case) according to them, has a conflict with language vocabulary and contradicts the balances and standards of the language.
In the case of the listener, the speaker, type of speech, place , time form, negations and so, all have a relation to the (Case) which requires the speaker to invent the appropriate form of word , inspired by the case, which may develop or change from time to time, or may be become familiar to the speakers after some time.
Books of language demonstrate the behaviour of the speaker in relation to sounds and words of the language. This of course is influenced by many factors including: the psychological, which was obvious in the Arabs as an innate human nature with every word spoken and uttered.
This diversity was not confined to a specific dialect, or to be studied as a phonological phenomenon only, but one has to deal with the causes of the phenomenon.
There is a reality, namely: that the derivations of verbal language in Arabic make up more than 80% of the vocabulary, which are only derived according to the situation, and such is available in language and anecdotes books as well as in the specialized dictionary books like (Ketab al Be’ir) , (Kitab al Nakhil), (Kitab Khelq Al Insan) and many others.

هوامش البحث

[١] ينظر بحثي الموسوم (مقام الحال وأثره في تنوع الحركة في الأبنية ، دراسة تطبيقية في الجذر الثلاثي) البحث مشارك في المؤتمر العلمي السادس لكلية الآداب – جامعة تكريت للمدة ٢٩-٣٠/نيسان /٢٠١١ .

[٢] ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير :٢ /٤٣ ، ٥٧ ، ١٢٨ .

[٣] إصلاح المنطق لابن السكيت :٣٨٤ ، وينظر المعنى نفسه في (المعاني الكبير في أبيات المعاني)للدينوري :١/١٩٩ .

[٤] إصلاح المنطق لابن السكيت : ٣٨٤.

[٥] نفسه : ٣٨٦ .

[٦] نفسه: ١٧٥ .

[٧] نفسه ١٧٦ .

[٨] نفسه ١٧٦ .

[٩] أدب الكاتب : ٢٢٦ .

[١٠] نفسه : ١٧ .

[١١]ينظر ، فروق اللغات في التميز بين مفاد الكلمات ، تحقيق:د.محمد رضوان الداية/دمشق١٩٨٧م .

[١٢] طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ١٩٨٤م .

[١٣]المعاني الكبير في أبيات المعاني : ١/٥٨ .

[١٤]نفسه : ١ / ١٩٢ .

[١٥]المزهر :١/٢٣٢ .

[١٦]ينظر الزاهر في معاني كلمات الناس ، لأبي بكر الأنباري: ٢/ ٦٩.

[١٧]ينظر نفسه : ٢ / ١٨١.

[١٨]ينظر الخصائص ،ابن جني : ١/٦٥-٦٦ .

[١٩] نفسه ٢/١٤٥ .

[٢٠] نفسه ٢/١٥٢ .

[٢١] نفسه٣/٢٦٣ .

[٢٢] نفسه :١/٢٤٥، ٢٤٦ .

[٢٣] نفسه :١/٦٦ .

[٢٤] نفسه :١/٦٥ .

[٢٥] دور الكلمة في اللغة :٨١ .

[٢٦] الخصائص : ١/٦٦ .

[٢٧] الصاحبي في فقه اللغة ، ينظر الصفحات :٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ .

[٢٨] نفسه :٧٣.

[٢٩] نفسه : ١٢٢.

[٣٠] ينظر : ص٤٣ .

[٣١] الخصائص :٢/١٥٢ .

[٣٢] نفسه :٢/١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ... االخ .

[٣٣] ينظر نفسه :٢/١٤٥ ، ١٤٦ .

[٣٤] نفسه :٢/١٤٦ .

[٣٥] نفسه ينظر :٢/١٤٧ – ١٥٢

[٣٦] نفسه :٢/١٥٢ .

[٣٧] ينظر : معاني القرآن للفراء : ١/٣ ،والخصائص :٢/١٤٤ ، ١٤٥ .

[٣٨] الخصائص :٢/١٤٤ ، ١٤٥ .

[٣٩] ينظر النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير : ٢/ ١٣٤، ١٤٦، ٢٤٧. والمبحثين الأول والثاني من الفصل الثالث لأطروحتي للدكتوراه النهاية في غريب الحديث والأثر دراسة لغوية :١٩٤ وما بعدها .

[٤٠] النهاية لابن الأثير :٢/ ٨٣، ٢٩٩، ٤٨٣. .

[٤١] نفسه : ٢/ ٨٣، ٢٤٠ .

[٤٢] نفسه : ٤/ ٢٠٢، ٢١٢ .

[٤٣] نفسه :٢/٨٧، ١٢٦ .

[٤٤] نفسه : ٢/١٤٠، ١٧١/٣ .

[٤٥] نفسه : ٢١٢/٢ .

[٤٦] نفسه : ٣٥٣/٣ .

مصادر البحث ومراجعه:

- أدب الكاتب، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري(٢٧٦هـ) تحق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر ،ط٤،١٩٦٣ م .
- إصلاح المنطق ، لابن السكيت (٢٤٤هـ) شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون،دار المعارف ، ط ٢ ، ١٩٥٦ م .
- الخصائص ، لأبي الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ) تحق محمد علي النجار ، دار الهدى ، بيروت، ط ٢ .
- دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان ، ترجمة د. كمال محمد بشر ، مكتبة الشباب ، مصر ،١٩٧٣م .
- الزاهر في معاني كلمات الناس ، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (٣٢٨هـ) تحق د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٩٩٢م.
- الصاحبي في فقه اللغة ، لأبي الحسين أحمد بن فارس (٣٩٥هـ) تحق السيد أحمد صقر ، مط عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .

●فروق اللغات في التمييز بين مفاد الكلمات ، تحقيق:د.محمد رضوان الداية/دمشق١٩٨٧م .

●فقه اللغة، لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (٤٢٩هـ) منشورات دار الحكمة ، دمشق ، ١٩٨٤ م.

●المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) تحة محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، دار الفكر، بيروت، ط ٤، ١٩٨١م.

●المعاني الكبير في أبيات المعاني ، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري(٢٧٦هـ)،ط ١ ، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.

●معاني القرآن ، لأبي زكريا أحمد بن زياد الفراء (٢٠٧هـ) عالم الكتب ، بيروت، ط٣ ،١٩٨٣م.

● (مقام الحال وأثره في تنوع الحركة في الأبنية ، دراسة تطبيقية في الجذر الثلاثي) البحث مشارك في المؤتمر العلمي السادس لكلية الآداب – جامعة تكريت للمدة ٢٩-٣٠/نيسان /٢٠١١ .

●النهاية في غريب الحديث والأثر ، للإمام مجد الدين المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (٦٠٦هـ)، تحـ طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي ط ٢،دار الفكر، ١٩٧٩ م.

● النهاية في غريب الحديث والأثر ، دراسة لغوية ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب جامعة بغداد، ١٩٩٨م.